السماع عند الكوفيين خصائصه ومميزاته

الأستاذ/ محمد خريبش أستاذ مساعد أ
بقسم اللغة العربية وآدابها - جامعة البليدة - 2 -

ملخص:

الهدف من هذا البحث تسليط الضوء على ظاهرة السماع عند الكوفيين،وذلك بتبيان الأسس والمعايير التي استند إليها الكوفيون أثناء جمعهم للمدونة اللغوية،للوقوف على أهم الفروق الجوهرية بين السماع عندهم وعند نظرائهم من البصريين قصد تحديد أوجه الاختلاف بين منهج المدرستين البصرية والكوفية .

مقدمة:

كان استشراء اللحن في البيئة العربية إيذانا بنشأة الدراسات اللغوية عند العرب، إذ رحل اللغويون الأوائل إلى البوادي العربية الفصيحة لجمع اللغة من أفواه العرب الفصحاء. فقام الخليل بن أحمد الفراهيدي بحصر مفردات اللغة العربية وفق طريقة(التوافيق والتباديل) مرتبا الحروف ترتيبا صوتيا مبتدءاً بحرف العين، كما قام سيبويه بوضع قواعد النحو معتمدا في الأساس على ما سمعه من أفواه العرب الفصحاء؛ أو ما سمعه من شيوخه كالخليل بن أحمد وأبي الخطاب الأخفش الأكبر، فألف كتابه المشهور الذي قيل بشأنه إنه من أراد أن يضع كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح. أما الكوفيون فقد عنوا أيضا بجمع المدونة اللغوية، فرحل بعض علمائها كالكسائي والفراء واللحياني إلى البوادي العربية، فظهر عندهم ما يسمى بالمدونة اللغوية(Corpus)؛ والسؤال المطروح هو ما المقصود بالسماع عند العرب ؟ وما هي شروط جمع المدونة اللغوية ؟ وهل تقيـــد علماء اللغة الكوفيين بهذه الشـــروط ؟ ما هي خصائص السماع عند الكوفيين ومميزاته ؟ وما هي أوجه الاختلاف بين السماع عند البصريين والكوفيين ؟

1. تعريف السماع:

1.1. السماع لغة: جاء في معجم العين مادة سمع ما يلي: « سَمِعَ: السمع: الأُذُنْ: وهي المِسْمَعَة، والمِسْمَعَة خرقها، والسمع ما وقر فيها من شيء يسمعه، يقال: أساء سمعا فأساء إجابة، أي: لم يسمع حسنا فأساء الجواب، وتقول: سمعت أذني زيداً يقول: كذا وكذا، أي: سمعته كما تقول: أبصرت عيني زيداً يفعل كذا وكذا، أي: أبصرت بعيني زيداً، والسماع ما سمَّعْتَ به فشاع وفي الحديث:(من سمع بعبد سمع الله به) أي: من أذاع في الناس عيبا على أخيه المسلم أظهر الله عيوبه. ويقال: هذا قبيح في السماع، وحسن في السماع، أي: إذا تكلم به... »[1].

1. 2. السماع اصطلاحا: عرفه السيوطي بقولـه: « وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن، وكلام نبيه- صلى الله عليه وسلم - وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا عن مسلم أو كافر »[2].

وإذا أمعنا النظر في تعريف السماع أدركنا أن المراد به الكلام الفصيح الذي يشمل القرآن الكريم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل فساد الألسنة بدخول المولدين الإسلام، وبالتالي فإن الذين عنوا بجمع المدونة اللغوية- من علمائنا الأفذاذ- راعوا المقاييس الزمانية والمكانية لرقعة الفصاحة[3]. كي تسلم لهم المدونة اللغوية من اللحن.

2. خصائص السماع ومميزاته عند الكوفيين:

سبق أن أشرنا من قبل أن العلماء الأوائل الذين رحلوا إلى البوادي الفصيحة لجمع اللغة، أخذوا بعين الاعتبار شروطا أساسية تمثلت في تحديد الإطار

---

1 - الخليل بن أحمد: كتاب العين، ص 445.

2 - السيوطي: الاقتراح، ص 48.

3 - ينظر: الحاج صالح عبد الرحمن: السماع اللغوي العلمي عند العرب، ص 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 75، 76، ففيه تفصيل دقيق لأشهر القبائل التي أخذت عنها اللغة مع تحديد دقيق لعصور الاحتجاج اللغوي.

الزماني والمكاني لرقعة الفصاحة، وذلك من خلال الاقتصار على القبائل المشهورة بالفصاحة كقبائل قيس وتميم وأسد وكنانة وطيء. غير أن السؤال المطروح هو هل راعى الكوفيون هذه الشروط ؟

الواقع أن الكوفيين أرادوا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً خاصاً بهم، فأبانوا بذلك عن نواياهم. وهي تأسيس مدرسة نحوية خاصة بهم، إذ أن الكثير من أسس المدرسة الكوفية مخالفة لأسس المدرسة البصرية، وحتى المصطلحات مختلفة غير أن هذا لا ينفي اشتراكهم في الأصول العامة التي قام عليها النحو العربي كالسماع والقياس ونظرية العامل.

ولعل ما يؤكد أن الكوفيين كانت لهم الرغبة في مخالفة البصريين هي احتكامهم في بعض مسائل اللغة والنحو لأعراب لم يكونوا من قاطني البوادي الفصيحة، ولعل أشهر هذه المسائل المسألة الزنبورية[4]. التي جرت بين الكسائي وسيبويه حول الرفع أو النصب في قول العرب: « كنت أظن أن العقرب أشد لسعاً من الزنبور فإذا هو إياها » فاختار سيبويه الرفع واختار الكسائي النصب محتكما إلى بعض الأعراب، فحكموا لصالح الكسائي وإن كان مخطئا في رأيه، وهذا دليل قاطع على أن الكوفيين « اعتمدوا على لغات أخرى أبى البصريون الاستشهاد بها، وهي لهجات سكان الأرياف الذين وثقوا بهم كأعراب سواد الكوفة من تميم وأسد، وأعراب سواد بغداد من أعراب الحطيمية الذين غلط البصريون لغتهم ولحنّوها واتهموا الكسائي بأنه أفسد النحو أو بأنه أفسد ما كان قد أخذه بالبصرة إذ وثق بهم وأخذ عنهم واحتج على سيبويه في المناظرة التي جرت بينهما بلغاتهم »[5].

وفيما يلي عرض لأهم خصائص السماع عند الكوفيين:

2. 1. **التوسع في الرواية والقياس:**

لما كان البصريون منشغلون بوضع صرح النحو وتأسيس مدرسة نحوية لها أصولها المنهجية الخاصة بها، كان الكوفيون في شغل عن ذلك، فقد اتجهت أنظارهم نحو رواية الأشعار، والعناية بالقراءات، وبهذا الصدد قال الدكتور شوقي ضيف: « لعل أهم ما يميز المدرسة الكوفية من المدرسة البصرية اتساعها في رواية الأشعار وعبارات اللغة عن جميع العرب بدوِيِّهم وحضريِّهم، بينما كانت المدرسة

---

[4] - ينظر: ابن هشام: مغني اللبيب، 1/153- 154.

[5] - الحديثي خديجة: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، ص 81.

البصرية تتشدد تشددا جعل أئمتها لا يثبتون في كتبهم النحوية إلا ما سمعوه من العرب الفصحاء الذين سلمت فصاحتهم من شوائب التحضر وآفاته ... »[6].

وهذا دليل واضح على أن الكوفيين لم يتشددوا تشدد البصريين في القياس على الكثير والمطّرد، وطرح وإهمال كل ما خالف أقيستهم. بل أدى بهم تساهلهم الواضح إلى أقيسة ابتدعوها مخالفة لما نص عليه السماع، فقد أجازوا « قياس لكن على بل في نحو قولنا قام زيد بل بكر من دون الاستناد إلى سماع فقالوا قام زيد لكن بكر »[7].

فهذا قياس يأباه البصريون لعدم سماعهم ذلك عن العرب. وقد فصل ابن جني في مسألة المفاضلة بين السماع والقياس، أو بمعنى آخر متى يجب الأخذ بالسماع وترك القياس قائلا: « واعلم أنك إذا أدّاك القياس إلى شيء ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فدع ماكنت عليه إلى ماهم عليه »[8].

فابن جني في هذا النص يؤكد على أنه إذا تعارض السماع والقياس فلا بد من الأخذ بالسماع وترك القياس، والكوفيون- كما ترى - لا يعتدون بهذا، بل يتوسعون في إجراء القياس من دون الاستناد إلى سماع، وربما ما قادهم إلى ذلك هو تساهلهم في جمع اللغة من قبائل أبى البصريون الأخذ عنها لأنهم لحنّوها فجاءت مدونتهم اللغوية حافلة بالغث والسمين بسبب هذا التساهل.

ولعل ما يؤكد أنهم كانوا يرفضون السماع أحيانا، وبالتالي يرفضون ما يبنى عليه من قواعد وأحكام أنهم رفضوا الاعتداد بما رواه سيبويه في الكتاب من إعمال صيغ المبالغة في أقوال العرب الفصحاء وأشعارهم كما في نحو قول العرب « أما العسلَ فأنا شرّاب » بنصب العسل مفعولا به لشرّاب[9]، والسبب في ذلك أنهم رأوا أن اسم الفاعل عمل لشبهه بالفعل المضارع، وصيغ المبالغة إنما عملت لشبهها باسم الفاعل. فكان عملها في الدرجة الثالثة، ولم تستحق العمل

---

6 - شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص 159.

7 - ابن هشام: مغني اللبيب، 423/1.

8 - ابن جني: الخصائص، 427/1.

9 - ينظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص 164.

بالأصالة لأنها فرع في العمل عن اسم الفاعل، والفروع تنحط عن رتبة الأصول كما نص على ذلك السيوطي في كتابه الأشباه والنظائر[10].

كما رفضوا الاعتداد ببعض القراءات القرآنية على الرغم من تواترها ويتعلق الأمر بإعمال أن المخففة من الثقيلة النصب، فقد ذكروا أن الثقيلة إنما عملت لشبهها بالفعل الماضي في بنائها على ثلاثة أحرف، وأنها مبنية على الفتح مثله، فإذا خففت زال شبهها به فوجب أن يبطل عملها، ولم يلتفتوا لاحتجاج البصريين عليهم بقراءة نافع وابن كثير وهي من القراءات السبع:(**وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم**)[11][12].

2.2. اعتماد البيت الواحد والقليل النادر لبناء القواعد النحوية:

لعل أهم ما يتميز به الكوفيون عن البصريين اعتمادهم البيت الواحد والقليل النادر لبناء القواعد النحوية، وهذا شيء يأباه البصريون، لأنهم لا يعتمدون إلا على الكثير المطرد، والأمثلة الآتي ذكرها خير دليل على منهج الكوفيين في الاستدلال بشواهد الشعر. ذلك أنهم أرادوا أن يخالفوا منهج البصريين وأغلب الظن أنهم أرادوا أن يؤسسوا مدرسة نحوية لها أسسها المنهجية الخاصة بها.

فقد أجاز الكوفيون إظهار « أن » المصدرية بعد(لكي) مستدلين بقول الشاعر:

لكيما أن تطير بقربتي ... ا شنا ببيداء بلقع[13].

والواقع أن هذا البيت مجهول القائل، ومن ثم فلا يكون حجة، فقد نص ابن الأنباري على ضرورة معرفة اسم الشاعر، حتى يكون شعره حجة في إثبات القواعد النحوية[14]، ومن هذا المنطلق ندرك ضرورة معرفة عصور الاحتجاج اللغوي، بل نعلم سبب تقسيم بعض النقاد القدامى الشعراء إلى طبقات، فقال ابن

---

10 - ينظر: السيوطي: الأشباه والنظائر، 315/1.

11 - سورة هود، الآية: 111.

12 - ينظر: ابن الأنباري: الإنصاف، 159/1.

13 - البيت من شواهد الإنصاف، 473/2.

14 - ينظر: ابن الأنباري: الإنصاف، 475/2.

رشيق: « طبقات الشعر أربع: جاهلي، قديم، ومخضرم... وإسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات ... »[15].

وقد عرض ابن الأنباري في كتابه الإنصاف لمسألة إجازة الكوفيين إظهار أن المصدرية بعد (لكي) عارضا حججهم. فقال: « ... أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: الدليل على أنه يجوز إظهار « أن » بعدها النقل والقياس.

أما من جهة النقل فقد قال الشاعر:

لكيما أن تطير بقربتي ... ا شنا ببيداء بلقع.

وأما من جهة القياس فلأن « أن » جاءت للتوكيد، والتوكيد من كلام العرب، فدخلت « أن » توكيدا لها، لاتفاقها في المعنى. وإن اختلفتا في اللفظ كما قال الشاعر:

قد يكسب المال الهدان الجافي ... بغير لا عصف ولا اصطراف

فأكد غير بـ« لا » لاتفاقهما في المعنى »[16].

إن المتأمل في رأي الكوفيين في مسألة جواز إظهار « أن » المصدرية بعد « لكي » يدرك- لا محالة - أنهم وإن لم يخالفوا البصريين في الأصول الكبرى التي قام عليها النحو العربي وهي السماع والقياس، إلا أنهم خالفوهم في استخدام هذين الأصلين. أو بالأحرى متى يجب الأخذ بالسماع وترك القياس، فالبصريون يتشددون في القياس على الكثير المطرد، ولا يلتفتون إلى البيت الشاذ، لاقتناعهم أنه غير كاف لإثبات القواعد النحوية مع تأكيدهم على ضرورة معرفة اسم الشاعر، وهذا مخافة أن يكون الشعر لمولد أو ممن لا يوثق بفصاحته.

ونقل السيوطي في كتابه الاقتراح عن ابن النحاس قوله: « ذهب الكوفيون إلى جواز دخول اللام في خبر « لكن »، واحتجوا بقول الشاعر:

ي من حبها لعميد*

---

15 - ابن رشيق: العمدة، 179/1.

16 - ابن الأنباري: الإنصاف، 473/2، 474، 475.

والجواب أن هذا البيت لا يعرف قائله، ولا أوله ولم يذكر منه إلا هذا ولم ينشده أحد ممن وثق في اللغة ولا عزي إلى مشهور بالضبط والإتقان »[17].

فما نقله السيوطي عن ابن النحاس يؤكد فساد منهج الكوفيين لأنهم أجازوا دخول اللام في خبر لكن مستدلين ببيت مجهول القائل والبصريون يمنعون ذلك لأنهم يرون أنه من الشاذ الذي لا يقاس عليه لذلك قرر البصريون اعتماد الكثير المطرد لبناء القواعد، وهنا يكمن الفرق بين منهج المدرستين. فالكوفيون يصرون على استخدام القليل النادر لبناء القواعد، أما البصريون فلا يلتفتون إلى ذلك ويؤكدون على كثرة الشواهد النحوية واطرادها لبناء القاعدة النحوية.

ونقل السيوطي أيضا في كتابه «المزهر» أن الكوفيين أجازوا مجيء أفعل التفضيل من الألوان والعيوب مستدلين بقول الشاعر:

في درعها الفضفاض من أخت بني أباض[18].

وجدير بالذكر أن البصريين يمنعون مجيء أفعل التفضيل من الألوان والعيوب، فلا تقول: هند أبيض من عائشة، ولا بكر أعور من زيد، لأن هذا لم يسمع عن العرب.

قال السيوطي نقلا عن ابن السراج: « وليس البيت الشاذ والكلام المحفوظ بأدنى إسناد حجة على الأصل المجمع عليه في كلام، ولا نحو، ولا فقه، وإنما يركن إلى هذا ضعفة أهل النحو ومن لا حجة معه. وتأويل هذا وما أشبهه في الإعراب كتأويل ضعفة أصحاب الحديث وأتباع القصاص في الفقه »[19]. ثم يعلق السيوطي قائلا: « فأشار بهذا الكلام إلى أن الشاذ ونحوه يطرح طرحا ولا يهتم بتأويله »[20].

وقال المبرد: « البيت الشاذ ليس بحجة على الأصل المجمع عليه »[21].

---

17 - السيوطي: الاقتراح، ص 72.

18 - البيت من شواهد الاقتراح، ص 74.

19 - السيوطي: المزهر، 191/1.

20 - السيوطي: الاقتراح، ص75.

21 - السيوطي: المزهر، 191/1.

ومن كل النصوص السابقة يتضح لنا أن البصريين لا يعتدون بالبيت الشاذ، ولا يعتبرونه حجة، لأن ذلك مخالف لأصولهم المقررة والتي من أهمها القياس على الكثير والمطرد وعدم الالتفات إلى القليل والنادر، لأنه غير كاف لإثبات القواعد النحوية.

2. 3. المبالغة في التقدير:

لعل أهم ما يتميز به منهج الكوفيين المبالغة في التقدير، ذلك أنهم يتوسعون في إجرائه، ومن أمثلة ذلك أنهم يرون أن الخبر الجامد يتحمل ضمير المبتدأ نحو: زيد أخوك وعمرو غلامك، « واحتجوا بأن قالوا؛ إنما قلنا إنه يتضمن ضميرا - وإن كان اسما غير صفة - لأنه في معنى ما هو صفة، ألا ترى أن قولك: زيد أخوك في معنى زيد قريبك، وعمرو غلامك في معنى عمرو خادمك وقريبك وخادمك يتضمن كل واحد منهما الضمير، فلما كان خبر المبتدأ هاهنا في معنى ما يتحمل الضمير وجب أن يكون فيه ضمير يرجع إلى المبتدأ »[22].

ففي هذا النص تأكيد واضح على أن الكوفيين « يعتمدون على المعنى في تقدير قواعدهم، والاعتماد على المعنى مظهر ضعف حذر منه عدد من حذّاق النحاة وعلى رأسهم ابن جني »[23]. الذي قال: « هذا الموضع كثيرا ما يستهوي من يضْعُفُ نظره إلى من يقوده إلى إفساد الصنعة. وذلك كقولهم في تفسير قولنا: (أهلكَ والليلَ) معناه ألحق أهلك قبل الليل، فربما دعا ذاك من لا دربة له إلى أن يقول(أهلك والليل) فيجره، إنما تقديره ألحق أهلك وسابق الليل. وكذلك قولنا: زيد قام، وربما ظن بعضهم أن زيداً هنا فاعل في الصنعة، كما أنه فاعل في المعنى. وكذلك تفسير معنى قولنا: سرَّني قيام هذا وقعود ذاك. بأنه سرني أن قام هذا وأن قعد ذاك، ربما اعتقد في هذا وذاك أنهما في موضع رفع لأنهما فاعلان في المعنى »[24].

ويلخص الدكتور التواتي بن التواتي الفروق الأساسية بين المدرستين بقوله: « إن مدرسة البصرة رأت أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتريد أن تسير عليها في دقة وحزم، وإذ كانت اللغات لا تلتزم القواعد العامة دائما بل فيها مسائل لا يمكن أن تجري على القاعدة وخصوصا اللغة العربية التي هي لغة

---

22 - ابن الأنباري: الإنصاف، 48/1.

23 - بن التواتي التواتي: المدارس النحوية، ص 98.

24 - ابن جني: الخصائص، 229/1.

قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ... أراد البصريون تمشيا مع غرضهم أن يهدروا الشواذ، فإذا ثبت صحتها قالوا إنها تحفظ ولا يقاس عليها بل جرؤوا على أكثر من ذلك فخطّأوا في أقوالهم إذ لم تجر على القواعد، أما الكوفيون فقد كانوا يتساهلون في الرواية حتى أنهم كانوا يأخذون عن الأعراب الذين قطنوا حواضر العراق، مما جعل الرياشي وهو من البصريين يفخر على الكوفيين بقوله: إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز »[25].

وخلاصة القول أن الكوفيين أرادوا أن تكون لهم مدرسة نحوية مستقلة عن المدرسة البصرية، وذلك بمخالفة البصريين في الأسس المنهجية والمصطلحات النحوية ويظهر ذلك من خلال توسعهم في الرواية والقياس والاعتداد بالقراءات القرآنية(المتواترة والشاذة). واعتمادهم البيت الواحد والقليل االنادر في بناء القواعد النحوية. ثم مبالغتهم في التقدير كما أنهم لم يكونوا صارمين في جمع اللغة ذلك أنهم لم يتقيدوا بما وضعه علماء العربية من شروط في جمع اللغة كشرط الجنس(جمع اللغة من أفواه العرب الخلص الذين لم يخالطوا الأعاجم). وتحديد رقعة الفصاحة زمانا ومكانا فجاءت المدونة اللغوية عندهم حافلة بالغث والسمين، لأنهم جمعوا اللغة من قبائل رفض البصريون الاستشهاد بكلامهم لأنهم ممن خالطوا الأعاجم أو أنهم في اتصال دائم مع الحواضر.

25 - بن التواتي التواتي: المدارس النحوية، ص 100.

ثبت المصادر والمراجع

أ. المصادر:

1. ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط1/2003.
2. الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، طبعة جديدة مرتبة وفق الترتيب الألفبائي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2/2005.
3. ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: الشيخ محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ط1/2006.
4. ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسين: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وتعليق: د/ النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1/2000.
5. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الأشباه والنظائر في النحو، راجعه وقدم له: د/ فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3/1996.
6. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد جاد المولى بك، ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1/2004.
7. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق وشرح: أحمد محمد قاسم، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط1/1976.
8. ابن هشام الأنصاري، أبو محمد عبد الله جمال الدين: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: بركات يوسف هبود، دار الأرقم، بيروت، ط1/1999.

ب. المراجع:

9. بن التواتي التواتي: المدارس النحوية، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1/2008.
10. الحاج صالح عبد الرحمن: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، ط1/2007.
11. الحديثي خديجة: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، ط1/1973.
12. شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7/1993.